استراتيجية الخطاب في البلاغة العربية

نحو مقاربة تداولية

د. واضح أحمد

أستاذ محاضر (أ)

جامعة الدكتور مولاي الطاهر

سعيدة - الجزائر

البريد الإلكتروني: Ouadah.a31@gmail.com

د. مسلم خيرة

أستاذة محاضرة (أ)

جامعة الدكتور مولاي الطاهر

سعيدة - الجزائر

البريد الإلكتروني: kheiracritique31@gmail.com

الاستلام	2019/6/25	المراجعة	2019/7/22	النشر	2019/8/31

الملخص:

لعل أدنى محاولة تأملية استنطاقية جادّة لطروحات العلماء البلاغين العرب وتصوراتهم، تفضي بالباحث الحصيف إلى اكتشاف منجًى استراتيجي هائل يغذي ويطعم آليات الخطاب البلاغي بومضات ومقومات تداولية صريحة وواضحة، ويظهر هذا المقتضى التصوري بقوة في ذلك المجال المعني بإحداث تواصل فعال يضمن تحقيق هدفين أساسين، هما: عملية إيصال الأفكار والمقاصد بطريقة صحيحة تؤدي إلى إفهام المتلقي من جهة، وتحقيق الأهداف والمقاصد والأغراض المتعلقة بالإمتاع والتأثير والإقناع من جهة أخرى، وهو ما يصب في صلب قضايا الدرس التداولي المعاصر وأهم مقولاته التي يعتد بها وهو يتعامل مع آليات الخطاب الاستراتيجي الهادف، وسنسعى في هذا المقال العلمي إلى إثبات هذا الحقيقة المعرفية، وقد اعتمدنا في نسج خيوط هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية:

البلاغة – المقاصد – الاستراتيجية - التداولية.

The strategy of discour in Arabic rhetoric

Pragmatic approch

Prof. Ouadah Ahmed

Professer at University of Dr. Moulay Tahar

Saida - Algeria

Email: Ouadah.a31@gmail.com

Prof. Muslim Kheira

Professer at University of Dr. Moulay Tahar

Saida - Algeria

Email: kheiracritique31@gmail.com

Received	25/6/2019	Revised	22/7/2019	Published	31/8/2019

Abstract :

Perhaps the slightest attemptive contermptative and serious attempt to theses and perceptions of scientists , leading the prudent researcher to the discovery of huge strategic grants ; feed the mecanisms of discours rhetorical with flashes and the element of trading frank and clear, and this conceptual requirement appears strongly in that particular area , with effect a communication that ensures the achievement of this two basic objectives ; the process of delivering ideas and purposes correctly that perform the understanding of the recipient on one hand ;and achievement of goals,purposes and purposes relating to pleasure,influence and persuasion on the orer hand ; this is at the heart of the contemporary pragmatic lesson and his important statements in dealing with meaningful strategic communication mechanisms In this scientific paper, we will seek to prove this knowledge fact. And we have adopted the weaving of the threads of this research on the descriptive analytical approach.

Key words:

Rhetoric, intentionality, strategy, pragmatic.

توطئة:

إن أول ما يجدر التنبيه عليه في هذا الصدد هو تلك التأويلات المتعددة[1] التي ألقيت على عاتق التوجهات التداولية واهتماماتها، فقد عدها بعض الباحثين من العلوم التي يجب أن تعيّن دورها في إدراج السلوك اللغوي ضمن مجال أوسع، وهو المتمثل في نظرية الفعل (براكسيس)، وذهب بعضهم إلى القول بأن على التداولية أن تركز اهتمامها في استعمال العلامات (موريس)، بينما عدها البعض الآخر من البحوث المهتمة أساسا بالتواصل بكل أبعاده التفاعلية التي تحصل بين الأعضاء الحية[2].

ولعل هذا الرأي الأخير كفيل بمد جسور هذه النقاط التوضيحية التي نحاول من خلالها تبين الأثر التداولي الذي ينتشر تحت طيات البلاغة وآلياتها الكبرى، وذلك عن طريق رصد أهم التماثلات الحاصلة بين كلا العملين.

من جهة المهمات المنسوبة إليهما، فقد نظر اللغويون والفلاسفة إلى مصطلح التداولية على أنها ذلك العلم الذي يشتمل على دراسة استخدام اللغة في علاقته بالسياق، لا سيما دراسة الإبلاغ اللغوي[3]، كما أن البلاغة هي من "بلغ الشيء يبلغ بلوغًا وبلاغًا: وصل وانتهى، والبلاغ ما بلغك، والبلاغ الكفاية (كفاية الإخبار)، والإبلاغ الإيْصَال، وكذلك التبليغ"[4].

من هذا الاقتراب التصوري نلمح تقاطعًا واضحًا والتقاء معرفيًّا لا يتخلله شوائب، فكلا العلمين يهتمان بمسألة الإبلاغ الذي يتم عن طريق اللغة، والمحاط بمجموعة من الظروف والملابسات التي تؤطر العملية الإبلاغية الحاصلة بين المتخاطبين.

وبالإضافة إلى هذا، ركزت البلاغة عنايتها؛ لإظهار أطراف العملية التواصلية والعلاقات القائمة بينهم، الأمر الذي جعلها تصب في مجرى الأهداف التي سطرتها الدراسة التداولية المعاصرة وهي تتعاطى مع اللغة في إطار عملها التواصلي، باعتبار أن الدرس التداولي المعاصر يركز اهتمامه وعنايته على أطراف الموقف التواصلي والعلاقات القائمة بينهم، أي بالسياق، وهذا بقصد تحديد العلاقة بينه وبين بنية النص[5].

ولعله يمكن القول بأن نظرة التداولية إلى العلاقات التفاعلية المنجزة عن أي عملية تواصلية كانت ذات طابع شمولي، بحيث إنها تأخذ بكل التحليل السليم المحقق للفهم الصحيح للصياغات اللغوية، وقد تحققت لها هذه الشمولية لاعتمادها على فرضية جوهرية مؤداها أن "الملفوظ الكلامي من حيث هو أداة من أدوات التواصل الإنساني، لا يكفي أن يحلل اعتمادا على الوصف النحوي التقليدي أو التوليدي التحويلي، ولا على الوصف النحوي الدلالي فحسب، إذ لا بد من أن يؤخذ في الحسبان موضوع السياق[6] التواصلي، الذي يؤدي فيه هذا الكلام الملفوظ دوره"[7].

واستنادًا إلى هذه التجليات، فإن الدور الذي يقوم به الملفوظ في سياق تواصلي معين هو ما تسعى التداولية إلى إبرازه، ويتمثل هذا الدور في تغيير الواقع وقلبه، بمعنى أن "كل فعل يغير حالة العلاقات القائمة بين أطراف الحديث والموجودة من قبل، ويأتي بشروط نشاطات مقبلة"[8]، وبذا فإن التداولية تتجاوز تلك الرؤية التقليدية والتي كانت ترى أي قول ما هو في الواقع سوى أداة اتصال تعبر عن محتوى وقصد معين[9].

إن هذا التوجه الذي خاضته التداولية وسارت وفقه وهي تتعامل مع النصوص والخطابات، المبني على أساس إدراك معالم التغيير والتأثير المستوحى من قول معين، يعد بحق خاصية جوهرية تشكل صميمها، وهذا ما نلفيه مطروحا في أسوار الأهداف المسطرة من طرف بعض الباحثين والمنظرين التداوليين وهم في مقام الحديث عن مهمات التداولية، فها هو فندرليس Venderlich في كتابه Funk Kolleg يقترح سلسلة من الأسئلة التي يجب ألا يتغاضى عنها أي لساني، ومن بينها[10]:

1-كيف نربط علاقات مع الأشخاص الآخرين بواسطة القول؟

2-كيف يمكن التأثير على الأشخاص الآخرين (آرائهم ومعتقداتهم وقناعاتهم) بواسطة القول.

3-إلى أي مدى يمكن للتلفظات اللغوية أن ترقى إلى مستوى طرائق خاصة للعمل؟

-كما نلفي أوستين يعرف التداولية على أنها "جزء من علم أعم، هي دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي، وبهذا التعريف ينتقل أوستين باللغة من مستواها اللغوي إلى مستوى آخر هو المستوى الاجتماعي في نطاق التأثير والتأثر"[11]. إن هذا التصور الذي اعترى فكر أوستين، والذي انتقل عن طريقه من المستوى اللساني الذي يتم عن طريق اللغة، إلى مستوى آخر أكبر اتساعا، وهو المتمثل في المستوى الاجتماعي، يعكس وجهة نظر تقيم دعائمها على أساس اعتبارات مقامية بالدرجة الأولى، بمعنى جعل مقام الخطاب **Le Contexte** بمثابة محور تأطيري يحاصر الحدث اللغوي من كل جوانبه، وفي هذه الحالة يصبح الكلام نتاجا من نتاجات المقام وملابساته.

وبالتالي فإن كل العمليات التفسيرية التي يحاول من خلالها المتلقي (السامع /القارئ) فهم معنى أي صياغة لغوية، متوقف على مدى إدراك هذا الأخير لتلك القرائن والملابسات والظروف المقامية، إن هذه العتبات المنهجية التي يتبعها الدرس التداولي في التعامل مع النصوص والخطابات هي عناصر نجدها تفرض نفسها وبقوة في الدرس البلاغي بشكل عام؛ لأن البليغ يحاول اللعب باللغة وفق مسار يضمن له تأثيرا بين البليغ والمتلقي، وما ينجر عنها من تأثير وتأثر يحصل في جو يضع نصب عينيه تلك التحولات والتغيرات التي تكون نتيجة مباشرة حتمية لتغير المقامات والمتلقين، بمعنى أن البليغ في هذه الحالة يوظف أدوات بلاغية صرفة (إجرائية /فنية جمالية) متعلقة تعلقا شديدا بالموافق والمقامات والمتلقين، وهذا ما يقودنا إلى القول بأن "مهمة البلاغة هي البحث في خصائص الكلام في علاقتها بقواعد الانتظام التي تقدمها قوانين اللغة"[12]. باعتبار أن هذه الأخيرة نظام من الرموز تتحكم فيه شبكة القوانين، أما الكلام "فهو الأداء الفعلي الملموس للغة من قبل الفرد"[13].

إن هذا الأداء الفعلي يفعّل حدث الانتقال من اللغة كنظام إلى كلام يراعي فيه البليغ اعتبارين أساسيين: جمال الألفاظ والعبارات المستخدمة، وتحقيق تلاؤم بين كلامه هذا والمقام الذي يحاصر العملية التواصلية الحاصلة بين البليغ والمتلقي، وذلك مبني على أساس أن البلاغة في عمومها هي "فن الخطاب الجيد، وينبغي أن يناسب الخطاب الموقف (لكل مقام مقال)"[14]، وكل هذا من أجل تحقيق التأثير على المتلقي.

وعليه، وجب على البليغ الأخذ بعين الحسبان الظروف النفسية والاجتماعية... للمتلقي، قصد تحقيق التلاؤم بين كلامه وهذه الحيثيات الأخيرة، على أساس أن "فكرة التوجه إلى المستمع تؤثر في عملية إنتاج النص؛ إذ إن منتجه يراعي الطرف المستقبل في إطار هذا المفهوم"[15]، ويحدث هذا انطلاقا من فكرة جوهرية مؤداها أن متلقي الخطاب في النموذج البلاغي يحتل المقام الأول بدون منازع[16].

وفي ظل هذه التجليات يظهر الالتقاء أو التماثل القائم بين الدرس البلاغي في عمومه والدرس التداولي من جهة اعتماد كليهما على المقام وحيثياته، فإذا كان المقام ركنًا مهما من أركان التوجه البلاغي وأساسياته سواء تعلق الأمر بالعملية الإنتاجية الخاصة بالمتكلم (البليغ)، أو بالعملية التفسيرية الباحثة عن المعنى (الخاصة بالمتلقي)، فإن النظرية التداولية للنص تقوم كذلك على مفهوم مقام الخطاب[17] [18].

وانطلاقا من هذا يمكن أن نستشف أن البلاغة المعيارية بمقوماتها التي ذكرنا بعضا منها، كفيلة بأن تكون –كما يقول هنرش بليت Hainrich. F.Pleet-: "بلاغة وصفية، بل أيضا بلاغة تاريخية وتأويلية تعكس بصورة نقدية وصفية تلقي الشارح (للنص)، إنها مؤهلة -في هذه الحالة- لتكون أسسا نظرية تداولية للنص"[19].

كما أن أي محاولة للكشف عن جوهر البلاغة عن طريق سبر أغوارها والولوج إلى عمقها، تقودنا نحو نفي أي اختلاف حاصل بين البلاغة والتداولية، والأهداف المسطرة لكلا الدرسين (البلاغي /التداولي)، فكلتاهما "تتفقان في

اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي"[20]، بمعنى أن كلتيهما (البلاغة /التداولية) تنظران للغة على أنها مطية ذات بعد تأثيري على المتلقين، وفي هذا الصدد يقول ليتش Letich: "إن البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والمستمع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما البعض"[21].

ويظهر جليا أمام هذا الطرح أن للبلاغة دورًا مماثلًا للتداولية عند إنتاج النص، وذلك فيما يتصل بالعناصر التي تتبعها من أجل التأثير والإقناع، بمعنى أن الهدف الرئيس للبلاغة ينحصر في "توفير القواعد وإعداد النماذج التي يستطيع المتكلم بمساعدتها إقناع سامعيه بحديثه وبمقدرته على تحقيق إثارة الشيء الذي يدافع عنه، ويمكن وصف الخطاب بأنه متحيز ويقوم على الإقناع"[22].

وأمام هذه التجليات، يمكن القول بأن للبلاغة والتداولية دورًا تماثليًّا من حيث الهدف والوسيلة؛ فكلاهما يقوم على إعداد ترتيبات (فنية /إجرائية)، واستراتيجيات معينة من أجل التأثير في المتلقين، وكل ذلك عن طريق اللغة، وتأخذ كل هذه الترتيبات منحًى تلاؤميًّا مع المقام الذي يحاصر تلكم العملية التواصلية من حدودها وروافدها.

1- مفهوم الخطاب في الفكر الغربي:

يعد مصطلح الخطاب من المصطلحات اللّسانية المعاصرة المتداولة في العقود الأخيرة من القرن العشرين، حيث استخدم في مجالات معرفية مختلفة، خاصة بعد ولوجه مجال "الدراسات الألسنية الحديثة التي تأثرت بها نظرية الأدب والنقد الأدبي مع ظهور تيّار البنيوية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي، وظهور التصورات والرؤى التداولية، ونظرًا لهذا التعدد تباينت مفاهيمه وحدوده لدى الباحثين، ولعلّنا لا نبلغ شططًا في القول أن تلك الظروف والمعطيات قد أدلت بدلوها في غرس نوع من الغموض والخلط في عملية تحديد الإطار المفاهيمي له، ولعلّ ذلك قد كان هو سبب القول بأنّ مفهوم "الخطاب مفهوم مائع ومتعدد الدّلالات"[23].

والجدير بالذكر في هذا المقام : أن للخطاب حضورا حقيقيا في اللسانيات الحديثة وجذورها الأولى، بحكم أنّه يستمد كيانه من ثنائية اللغة والكلام التي تحدث عنها دي سوسير في محاضراته الشهيرة Cours de linguistique générale "محاضرات في اللسانيات العامّة"، ذلك أن هذين المفهومين قد تطورا عند الدارسين والباحثين اللغويين اللّاحقين ليأخذا مصطلحات ومفاهيم ودلالات أخرى، "فصار المفهومان عند هيلمسلاف Helmslev (الجهاز، النّص) (Texte وSystème) وعند ناعوم تشومسكي Noam Chomsky (الطّاقة، الإنجاز) (Compétence performance)، وعند رومان جاكبسون Romane Jakobson (الدليل، الرسالة) (Code, message) وعند قصطاف غيوم Gustave Guillaume (اللغة، الخطاب) (Langue, Discours)، وعند رولان بارث Rolan Barth (اللغة، الأسلوب) (langue, style)"[24]، وعليه، فلا مجال للشك أن للخطاب وجودا مفاهيميا في الأسلوبية أيضا، سواءٌ تعلق الأمر بوجهتها القديمة التّي عنيت بالبلاغة إلى جوانب قواعد اللغة، أم من وجهتها المعاصرة التي عكفت على التركيز في مدارساتها على مراعاة النظام الصّوتي والبناء الشكلي والدّلالي، أي الملفوظ الّذي يعده اللّسانيون نصّا، ويراه النقاد عبارة عن خطاب في أغلب الأحوال والمواضع.

في المعجم الفرنسي Petit Larousse، عرّف الخطاب discours بأنه "ملفوظ أكبر من الجملة، موجه لتوضيح وجهة نظر متعلقة به، ويعرف الخطاب في الفلسفة بأنّه مجموعة من الملفوظات التّي تبرهن على موضوع واحدٍ، تأسيسًا على مجموعة من المعطيات"[25]، أي أن الخطاب من هذه الزاوية ذو أبعاد طولية خطية تشتمل على مكونات بنائية تتعدى الجملة الواحدة، كما أن هذه المكونات الأخيرة تصبّ في منحى توضيح فكرة جوهريّة، أو مجموعة من الأفكار التّي تنضوي تحت لواء وجهة نظر أو تصور حول موضوع ما.

وتجدر الإشارة هاهنا إلى أن نظرة اللسانيين إلى الخطاب تقوم على الشكل أو البنية التركيبية، التّي تقصي معطيات خارجة عن النظام والتركيب من صلب مجموعة الإجراءات والآليات التي ينبغي للمحلّل اللساني الأخذ بها وهو في صدد مدارسة الوظائف والحقائق والمدلولات والشيفرات المزروعة على طول الخطابات بمختلف أشكالها وصورها، وهو ما أقره دافيد غيوم مثلا الذي جعل مفهوم الخطاب يرتكز أساسًا على بنيته التركيبية ذات الوحدات أو العناصر اللسانية المتوالية من الجمل"[26].

وأمّا بالنّسبة للعالم اللّغوي بنفنيست Benveniste فقد نظر إلى الخطاب نظرة مخالفة لبعض الرؤى اللسانية التقليدية خاصّة البنيوية منها، التّي طالما اتجهت بجهودها إلى مقاربة الخطاب بوصفه جهازًا نسقيا شكليًّا، لا علاقة له بالمعطيات والظروف التي تحف بالنشاط الإنتاجي للعبارات والصياغات، حيث اتجه هذا الأخير –بنفنيست- إلى نظرة مخالفة لهذا التصور قوامها أنّ الخطاب ملفوظ منظور إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغالية في التواصل، ومعنى ذلك أنّه مرتبط بإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم معيّن، في مقام معيّن، وهذا الفعل هو عمليّة التلفظ، وبمعنى آخر أكثر اتساعًا فإن "كلّ تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأوّل حذف التأثير على الثاني بطريقة ما"[27]، وعند هذا الحدّ يغدو مفهوم التلفظ Enonciation بمثابة الفعل الذاتي في استعمال اللّغة، ومن ثم الولوج إلى دراسة الكلام ضمن مركز نظرية التواصل ووظائف اللّغة، ذلك أنّه موضوع الدّراسة، وليس الملفوظ، ومن ثم لا يكون الملفوظ عنده خطابا حتى يستوفي شروط التخاطب ذات البعد التفاعلي Interactionnel والتواصلي، ويمكن توضيح هذا التصور على الشكل التالي:

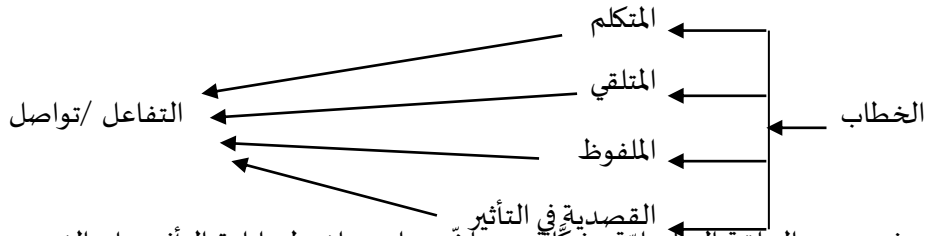

ومن ثم تصبح الحلقة التواصليّة مشكّلة من باثٍّ ومتلقٍ وملفوظ وإرادة التأثير على الفرد، ممّا ينتج عنه تغيير القناعات والاعتقادات المصاحبة للمتلقي، بصيغة أخرى تغيير الواقع، كما يمكن لنا أن نستشف عناصر ومعطيات ضمنيّة تتخلّل هذه الحلقة، كمفهوم الرسالة المشحونة بالبلاغ، والشفرة المتعارف عليها لفك الرّموز البيانية غير الواضحة.

كما يمكن رصد هذا النوع من النظام التلفظي في أن اللّغة:

1-تتمظهر في القول الذي يحيل إلى موقف ما، فإذا تكلمنا فإننا نتكلم دائما عن شيء ما.

2-تتكون –من حيث الشكل- من وحدات مستقلة تمثل كل منها علامة.

3-تنتج اللغة وتستقبل في قيم إحالية مشتركة بين أعضاء مجتمع واحد.

4-تمثل للّغة التحقق الوحيد للتواصل البينذانوي Intersubjective [28].

وعلى هذا الأساس فإن ربط الملفوظ بالخطاب يتطلب وضع مجموعة من القواعد التي تتوافر على قابلية التعبير بالكلام، على أساس أن الملفوظ جزء لا يتجزأ من الخطاب، ويشكّل ركنا من أركانه، بوصفه وحدة لسانية تواصلية ديناميّة، ذات خصوصيات نحوية ودلالية، وعليه فإنّ الملفوظ وحده لا يحدّد الخطاب إلّا إذا أضيفت إليه وضعية التّواصل.

ومن هذا المنطلق يحدّد بنفنست Benveniste الخطاب على أنّه نسق دال داخل منظومة اللّغة، وعليه كان مراده الكشف عن العلاقات الدّالة للّغة الفنية داخل العمل الفني، وقد تجلى ذلك من خلال تمييزه بين نظامين (للتلفظ)،

باعتماده على مقولتي (الضمائر وزمن الأفعال)، ويحدّد هذين النظامين في المحكي Le Récit والخطاب Le discours. وبالإضافة إلى هذا التمييز يقوم بنفنست بتحديد المحكي داخل اللغة المكتوبة من خلال زمن الماضي، حيث يتم تقديم أحداث وأفعال في زمن ما بدون تدخل المتكلم في المحكي هي صيغة L'AORISTE[29]، بينما يتجلى الخطاب في معظم حالاته في مستويين اثنين (الكتابي والشفوي)، كما نلفيه مطروحا في بعض الأحيان في أسوار المحكي نفسه، وذلك عند إعادة المؤلف إنتاج أقوال الشخصيات، أو بتجلّ من المؤلف نفسه لتقييم الحدث المحكي[29].

وعليه فإنّ كُلًّا من الخطاب والمحكي لهما التدخّل نفسه في عملية التلفظ، وذلك عن طريق الخطابات المباشرة، بالإضافة إلى هذا الطرح يعد بنفنست التلفظ القصصي (المرتبط بالمحكي) مرتبطا باللّغة المكتوبة، بينما يوظّف الخطاب كتابة وشفويا، وفي الإنجاز الحقيقي للتلفظ نجدنا في الآن نفسه ننتقل من أحدهما إلى الآخر[30].

لقد أدّت جهود إميل بنفنست في آخر الأمر إلى تليين بعض المفاهيم والمصطلحات والمقولات الصّارمة، وذلك بوضع "مكانة للذات المتكلّمة بعدما أقصتها لسانيات البنيوية، وفتح المجال واسعًا لتشييد اللسانيات الخطابيّة، حيث دعا إلى الأخذ بالحسبان تلك الوظيفة التّي تقوم بدور الوساطة في عمليّة التلفظ، فتسمح بالانتقال من السّنن إلى المرسلة وتاليًا إلى الخطاب"[31]، وهذا التصوّر نفسه نلفيه مطروحًا في أسوار فكر دومنيك مانجينو D. Maingueneau الّذي كان يعد الخطاب مفهوما عصيّا على صعيد اللّسانيات البنيوية واللسانيات التوليدية والتحويلية، وقد تجلّى ذلك بقوّة عندما راح يجعل الخطاب مرادفا للكلام، وهو نفس ما دعا إليه ف. دي سوسير، وبالتالي انبثاق فكرة مؤدّاها أنّ الجملة لا تنتمي إلى حيّز اللسان، وإنّما تنتمي إلى الكلام بوصفها وحدة خطابيّة[32].

كما نجد غاردينار H. Gardiner يشير إلى التفرقة بين الخطاب واللسان، تبعا لما أقرته دراسات فرديناند دي سوسير، حيث يقول: "ويمكننا توجيه الخطاب نحو اتجاهه الاجتماعي، أو نحو اتجاهه العقلي (الذهني) [...] في الخطاب الميزة الفيزيائية التي يتمتع بها في ذاته تظهر عاطفية ماديّة ليس إلّا"[33]، وعليه فقد أدّى هذا التّصور إلى نشوء آثار معرفية لسانية عمادها غضّ الطرف عن المراجع والسياقات التي تشكل المهد والكنف الجوهري لمسألة الإنتاج اللّغوي، وهو أمْر ساد فكر نقاد ولساني البنيوية.

إنّ هذا التصور غير التقليدي في النظر إلى الخطاب قد أدّى إلى إثبات الطبيعة الكلامية للخطاب، ممّا انجر عنه تعميق بعض المقولات والأدبيات؛ كالسياق الذي أنتج فيه، والذات المتكلمة، والحوار... حيث كان يعتبر كل من دومنيك مانجينو وزميله باتريك شارودو Partick Charaudeau "أن الخطاب فعاليّة مشتركة في مبدأ الحوار باعتبار أن الظاهرة الأساسيّة في هذه الفعاليّة هي الحوار، أين يجسّد كلّ من المتحاورين تنسيقا محكمًا في أقوالهما، حيث يؤخذ بعين الاعتبار في عملية التلفظ الخلفية الثقافية والدينية والإيديولوجية، التّي نستطيع بواسطتها إدراك مقاصد أقوالنا في الأخير، هكذا يمكن فهم العلاقة بين الخطاب والحوار، إنّها بدون شك تبادل قد يكون ظاهريا أو ضمنيا مع مخاطبين، إن هذه الأخيرة تفترض وجود إلحاح تلفّظي اعتراضي موجه في الأساس إلى المخاطب الّذي يستطيع في ظلّ هذا السّياق، بناء خطابه الخاص، الشيء الذي يجعل من الحوار لا يعدّ خطابًا بغاية الجودة، ولكنّه شكل من أشكال الصّنع"[34]، أي أن الحوار يشكل الضابط الحقيقي للخطاب، كما أن الطبيعة الكلاميّة للخطاب يمكن أن تكون مشافهة أو كتابة.

لقد نظر مانجينو إلى مصطلح الخطاب (الملفوظ) من زاوية تداولية؛ حيث ركز على الخصائص الديناميّة للتلفظ، وعلى العلاقة بين شركاء العمليّة التواصليّة وفق السّياق المسجل فيه التلفظ، كما يحيل دال الخطاب على المحادثات، التفاعل الشفوي، وقد يقصد به بعض أنماط الملفوظات الخاصّة بفئات اجتماعية معيّنة؛ كالخطاب الأنثوي، الخطاب الإداري...[35]، أي أن طبيعة الخطاب عند مانجينو ذات صلة وثيقة بالسياق وحيثياته، وهو ما لم يكن مطروحا تماما في المناخ البنيوي.

أما بالنسبة لرولان بارث، فقد ذهب في كتابه نظرية النص Théorie Texte إلى أنّ الخطاب "إنجاز فردي يتشكل من مجموعة من الوحدات الخطابية، تربطها ببعضها علاقات تحقق للخطاب انسجامه"[36]، نستشف من عبارة "إنجاز فردي" أنه لم يفصل بين الذّات المنتجة المُنجِزة والخطاب، ومن ثم تذوب اختلاجات الإيديولوجية والذاتية Subjectivité في عملية صنع الخطاب، بحكم أنّ الممارسة الدلالية داخل الخطاب تعيد للكلام طاقته الفاعلة.

والحقيقة أن رولان يرى أن الخطاب يمثل وحدة صغرى تتكون من مجموعها الثقافة نفسها بوصفها بنية كبرى، منطلقا في تأسيس تصوره هذا من الجملة، كونها المادّة الأولى في بناء الخطاب وتشكيله "فالجملة في اللسانيات هي الوحدة الأخيرة في اللّغة، وهذا لا يعني أن الخطاب لا يوجد إلّا في الجملة؛ لأنّ الجملة هي القسم الأصغر الّذي يمثّل بجدارة كمال الخطاب بأسره، واللّسانيات لا يسعها أن تتخذ موضوعًا أرفع من الجملة؛ لهذا من الحتمي أن يكون الخطاب ذاته منتظما ضمن مجموعة من الجمل"[37].

على الرغم من استبعاد بارث إمكانية تقديم نظرية لسانية حقيقية للخطاب، إلّا أنّه حاول تقديم تصور لساني لتحليل الخطاب يقوم على مقولات أساسية (الزمن، الصيغة، الجهة)[38]، حيث يقترح ثلاثة مستويات لتحليل الخطاب:

1-مستوى الوظائف.

2-مستوى الأحداث.

3-مستوى السّرد.

كما يؤكّد بارث على ترابط بين المستويات فيما بينها؛ إذ لا معنى لوظيفة إلاّ بقدر ما تحتلّ مركزًا في العمل العام للفاعل، وهذا العمل يتخذ معناه النهائي من كونه عملًا مسرودًا منتميا لخطاب له نظامه الرّمزي الخاص.

أمّا بالنسبة لـ "طه عبد الرّحمن" فيؤكّد في تصوره المتعلق بالخطاب أن هذا الأخير يرتبط ارتباطا وثيقا بعملية الاتصال، بالانطلاق من تحقيق الاقتراب أو الابتعاد، حيث يقول "حدّ الخطاب أصل كلّ تعامل كائنا ما كان، لكن ماهيته ليست في مجرّد إقامة علاقة تخاطبيه بين جانبين فأكثر؛ لأنّ هذه العلاقة -على قدرها وفائدتها- قد توجد حيث لا يوجد طلبُ إقناع الغير، بما دار عليه الخطاب، وقد يحصل الجانبان القصدين المطلوبين في قيام هذه العلاقة، وهما قصد التوجه إلى الآخر، وقصد إفهامه مرادا مخصوصًا، من غير أن يسعى إلى جلب اعتقاد أو رفع انتقاد، ولا يزيد في يقين أو ينقص من شك، وإنّما حقيقة الخطاب تكمن في كونه يضيف إلى القصدين التخاطبيين المذكورين قصدين معرفيين، هما: قصد الادعاء وقصد الاعتراض"[39].

فمن خلال هذا التّحديد نستشف أن الخطاب –حسب تصوره- يأخذ بعدا قصديّا، ومن ثم فإن مفهوم الخطاب يبتعد عن تلك المفاهيم الشكلية التّي وكلت إليه، كما نستشف أن ماهيته هي أرقى من مجرد إقامة العلاقات التخاطبية بين أطراف عملية التواصل، مع قصد التوجه إلى الآخرين (المُخَاطَبين)، وقصد إفهامهم مرادًا معيّنا، بل يتعدى الخطاب ذلك بتضمنه قصدين آخرين، هما: قصد الادعاء، وقصد الاعتراض.

ثمّ يقوم بشرح هذين القصدين بقوله: "أمّا قصد الادعاء: فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطابًا حقًّا حتّى يحصل من النّاطق صريح الاعتقاد لما يقول من نفسه، وتمام الاستعداد لإقامة الدّليل عليه عند الضرورة، فالمدعي هو عبارة عن المخاطب الذي ينهض بواجب الاستدلال على قوله"[40]، أي أن المنطوق به هاهنا يعدّ بمثابة خطاب شديد الصّلة بالمخاطِب وقناعاته، على أساس أنّ هذا الأخير لا ينطق إلّا بما كان مؤمنًا به ومستعدًّا لإقامة الدّليل .

أمّا بالنسبة لقصد الاعتراض فيستلزم "أنّ المنطوق به لا يكون خطابا حقًّا، حتّى يكون للمنطوق له حقّ مطالبة الناطق بالدليل على ما يدعيه، ذلك لأن فقد المنطوق له لهذا الحق يجعله: إمّا دائم التسليم بما يدعيه الناطق، فلا سبيل إلى تمحيص دعاويه، وإمّا عديم المشاركة في مدار الكلام، فإذن المعترض هو عبارة عن المُخَاطب الذي ينهض

بواجب المطالبة بالدّليل على قول المدعي. وإذا تحققت كلّ الشروط فاعرف أن المنطوق به الذّي يستحق أن يكون خطابا هو الّذي يقوم بتمام المقتضيات التعامليّة الواجبة في حق ما يسمى بالحجاج"[41]، فقصْدُ الاعتراض مرتبط بالمنطوق به (الخطاب)، الذي يجعل انطلاقته مؤسسّة على المُخاطب المُطالب بالدّليل المثبت للدعوى، ومن هذا المنطلق فإن مفهوم الخطاب عند طه عبد الرحمن يتأسس على معطيات حجاجيّة تفضي بالتفاعلات التواصلية/الحوارية إلى إقامة حدود فصل بين قبول للآراء، ودحض للادعاءات المطروحة في العمليات التواصلية.

2- التعريف بمفهوم الاستراتيجية:

لما كان مصطلح استراتيجية الخطاب مؤلفا من لفظين، هما الاستراتيجية والخطاب، فقد بات من الضروري فصلهما مبدئيا؛ لغرض توضيح مفهوم كليهما على حدة؛ ليتم الوصول إلى تأليف بين هذين العنصرين (المفهومين) قصد الانتهاء إلى تحديد مفهوم استراتيجية الخطاب بمنهج يخدم الوجهة المنهجية التداولية التي يقتضيها الموضوع.

تعرف الاستراتيجية بمفهومها العام بأنها "طرق محددة لتناول مشكلة ما، أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معينة، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة، والتحكم بها"[42]، ووفق هذا المنظور فإن هذه الأخيرة (الاستراتيجية بوجه عام) تنصب على لملمة طرق ووسائل وإجراءات؛ قصد تحقيق غايات وأهداف محددة. ويتم هذا المنحى باختيار نوعي منهجي إحدى الطرق أو الأدوات المتوافرة، على أساس أن هذه الأخيرة متميزة ومتفاضلة فيما بينها، وتُقَوَّمُ مرجعية التفاضل هذه بالاعتماد على "السياق الذي تجري فيه، فما يكون مفضلا في سياق معين قد لا يعود كذلك في سياق آخر؛ إذ تتوفر السياقات على معايير كثيرة"[43].

أما مفهوم الخطاب فهو واحد من المصطلحات التي ارتبطت بمجموعة من المفاهيم الإجرائية الملازمة له، في مجال البلاغة والنقد العربيين، هذا من جهة، وفي مجال علوم الشريعة والفقه من جهة أخرى. ولما كان الهاجس الذي يتوجسه البحث هو التبحر في البلاغة وإجراءاتها التداولية، نجد أنه من الضروري التوجه مباشرة إليها (البلاغة)؛ قصد الكشف عن ماهية التعاطي، وكيفيته مع هذا المفهوم (الخطاب) من زاوية نظر البلاغة العربية.

إذا توجهنا إلى مفهوم الاستراتيجية "في الخطاب"، نلفي أن أهم الدعائم التي يرتكز عليها هذا المفهوم "السياق"، على أساس أنه لا وجود لخطاب إلا ضمن إطار سياق ما، ومن هنا فإن الناس عامة يلجئون إلى استخدام اللغة بطرق منظمة ومتناسقة تتماشى مع ما يقتضيه السياق الذي يحف بالعملية التواصلية؛ إذ "يؤخذ بعض من هذا التنظيم من الحقيقة التي تقول إن الناس ينتمون إلى جماعات اجتماعية، مما يجعلهم يتبعون نماذج من السلوك العام والمتوقع داخل الجماعة [...]، ويؤخذ المصدر الثاني للتناسق في استعمال اللغة من حقيقة أخرى تقول إن أغلب الناس الذين ينتمون إلى المجتمع اللغوي ذاته يمتلكون معرفة العالم بشكل متشابه كما أنهم يشتركون في كثير من المعارف غير اللغوية"[44].

وهكذا يمكن القول إن ضمان نجاح الخطاب المنجز يبقى مرهونا بالتخطيط له مسبقا، وذلك عن طريق انتقاء واختيار أفضل السبل والأدوات المؤدية للوصول إلى المراد الذي يتمفصل غالبا في: تحقيق عملية الإفهام الموجه إلى المتلقي، وكذلك التوصل من خلال هذا المسار الاستراتيجي (الخطابي) إلى التأثير والإمتاع والإقناع، ومن ثم كانت استراتيجية الخطاب بمثابة "مجموع القواعد التي يجب أن ترافق تواصل المرسل والمرسل إليه؛ كي يتم ذلك التواصل بنجاح"[45].

إن أي محاولة لتسليط الضوء على تعامل البلاغة العربية مع الخطاب، تفضي مباشرة إلى إدراك ذلك الطابع المتمفصل الذي ميز وطبع توجهات ذلك التعامل النابع من عناية البلاغيين، حيث وجهوا جهودهم ودراساتهم نحو أنواع ثلاثة للخطاب، وهي الخطبة والقصيدة (الشعر) والقرآن الكريم، رغبة منهم في الكشف عن المظاهر والاستراتيجيات

البلاغية (الفنية والجمالية...) الموظفة لشد انتباه المتلقي والتأثير فيه، بمعنى البحث عن سر ذلك التوظيف المؤدي إلى تحقيق هدفين أساسيين، هما: الإقناع[46]، وسمة الجمال[47].

وعند هذا الحد يصبح الأسلوب (الهادف) المعتمد من طرف المتكلم البليغ (كما يعتقد **فان ديك**) مسيطرا على بنى النص البلاغية في جميع المستويات، والنصية (مستوى الأصوات والكلمات، والبنى الجملية، والعلاقات بين الجمل، والبنى الكبرى[48]، والبنى الفوقية[49]) انطلاقا من ملسك يخوضه البليغ لأسباب استراتيجية تضمن له تحقيق أهدافه المنشودة[50].

3- استراتيجيات الخطاب البلاغي العربي في ضوء الدرس التداولي المعاصر:

إن المتصفح لدواوين البلاغيين العرب ومؤلفاتهم، يلفي تخريجات هائلة تعكس بعمق وإدراك كبير ذلك المسعى الاستراتيجي[51] الذي كان يوظف في الخطابات في سبيل إحداث تواصل فعال يضمن تحقيق هدفين أساسيين، هما: عملية توصيل الأفكار والمقاصد بطريقة سليمة صحيحة تؤدي إلى إفهام المتلقي (القارئ /المستمع)، هذا من جهة، ومن جهة ثانية تحقيق أهداف وأغراض تواصلية تتجاوز المستوى الأول المتعلق بالإفهام إلى مستويات أخرى؛ كالإمتاع والتأثير والإقناع...إلخ.

إذا توجهنا إلى هذا المستوى الأخير، والمتعلق بالإمتاع والإقناع والتأثير... نلفي أن البلاغة العربية تزخر بذخر ثمين، استلهمته من خلال الإدراك والفطنة العالية التي اكتنفت أفكار بعض الأعلام البلاغيين العرب تجاه مسألة إستراتيجية الخطاب؛ حيث توصلوا إلى بعض التصورات الجوهرية والتنظيرات الصميمية التي تخدم وتثري هذه المسألة، وقد تحقق هذا الإثراء بالاستناد أساسا إلى الإطار التوظيفي والانتقائي لبعض الأدوات العقلية، الفنية الإجرائية الجمالية، التي تخدم البعد الاستراتيجي للمتكلم (البليغ)، وتأخذ بيده إلى منطقة "بوتقه التأثير" والتي ترمي بشعاعها على المتلقي، وبالتالي تحقيق الرغبة المنشودة التي يسعى إليها المتكلم المبدع؛ سواء كان ذلك عن طريق الكتابة أو المشافهة، ومن بين الآليات الاستراتيجية التي انطوى عليها الخطاب البلاغي العربي في بعده التداولي:

3-1 - الصور البيانية:

تظهر في هذا المجال تركة كبيرة خلفها البلاغيون العرب، تكتنف اختلاجاتها طاقات هائلة من الإجراءات والآليات الاستراتيجية، وتوظف هذه الصور من أجل خدمة البعد التأثيري الذي يتوخاه الخطيب أو الشاعر في أي حقل من الحقول الكلامية، سواء تعلق الأمر بالسياسة أو الدين أو الأدب...؛ للإيهام أن ما يقوله هو عين الصدق وجوهر الحقيقة، وبالتالي بات ضروريا على هذا الخطيب أن يكون مزودا بطاقات أسلوبية بلاغية بيانية؛ كي يأتي حديثه "أكثر تأثيرا على النفس، وأكثر إبلاغية[52]" [53].

وتندرج هذه الصور – ذات الطابع الاستراتيجي- ضمن علم البيان، الذي يمثل قسما من أقسام البلاغة العربية، وهو: "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[54]، فالوضوح ركن ركين، ومسعى قيم في علم البيان، باعتبار أن البليغ في كلامه يسعى إلى دفع اللبس والغموض عن ثنايا كلامه، رغبة منه في إجلاء المقصد (الغرض) الذي يشكل بطبيعة الحال الهدف العام لتلفظه، ولتحقيق هذا المرمى يرتكز البليغ المبدع على استعمال هذه الصور؛ اعتقادا منه أنها تسهم في خلق استراتيجية إفهامية (توضيحية) أو تأثيرية، أو إمتاعية...إلخ.

ومن بين هذه الصور:

أ/التشبيه[55]: وهو من الآليات الاستراتيجية القيمة التي أخذت قسطا وافرا من جهد البلاغيين العرب من حيث الدراسة والفحص والبحوث المستفيضة، ويعرف بأنه "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في المعنى)[56]. ولقد رأى النقاد

والبلاغيون العرب أن التشبيه نوع من المقارنة بين شيئين (مشبه ومشبه به)، غير أنهم شددوا على أن تكون بينهما علاقة من نوع ما، كما ركزوا على أن يكون المشبه والمشبه به مختلفان[57]، على أساس أنه "لو أشبه الشيء من جميع جهاته لكان هو هو"[58].

أما فيما يخص طريقة عمل هذه الصورة البيانية في بعدها الاستراتيجي التداولي، فهي تظهر جليا من خلال استهدافها توكيد المعنى المراد (المقصدية بمصطلح تداولي)، وترسيخه في ذهن المتلقي، وفي هذا الصدد يقول الخطيب القزويني: "فاعلم أنه [التشبيه] مما اتفق العقلاء على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة، وأن تعقيب المعاني به – يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها؛ مدحا كانت أو ذما، أو افتخارا، أو غير ذلك"[59]، أو كما يرى أبو هلال العسكري أن التشبيه "يزيد المعنى وضوحا، ويكسبه تأكيدا، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه"[60].

ب/الكناية: لقد حظيت الكناية هي الأخرى باهتمام البلاغيين العرب، إلا أنهم اختلفوا في إيجاد تعريف نهائي لها[61]، ولعل أوفى تعريف للكناية قدمه قدامة بن جعفر، وعنونها بعنوان آخر سماه الإرداف، وتحديده: "أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له"[62].

ومن أمثلة ذلك قول الآية الكريمة من القرآن الكريم "أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء"[63]، إن هذه الآية إذ تتحدث عن الجماع والخلوة، فقد استعملت لفظا آخر بينه وبين المعنى المقصود (الجماع) ارتباط وتلازم، بمعنى أنها اعتمدت على التلميح ولم تعتمد على التصريح[64]، أو كقول امرئ القيس[65]:

وَيُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا نَئُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

أي: لما أراد الشاعر (امرؤ القيس) أن يعبر عن حياة الترف التي تعيشها هذه المرأة، استعمل عبارة "نئوم الضحى" حتى يلج المتلقي (القارئ /السامع) بواسطة عملية استدلالية ذهنية إلى فهم مراده، المتمثل في كون هذه المرأة لا تنتطق لتخدم، ولكنها في بيتها متفضلة، وأن فتيت المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها، ومن ثم الوصول إلى المقصدية العامة للشاعر، وهي حياة البذخ والترف، ويمكن أن نمثل العملية الاستدلالية الذهنية التي يقوم بها المخاطب وهو يحاول فك الكناية وفهمها على الشكل التالي:

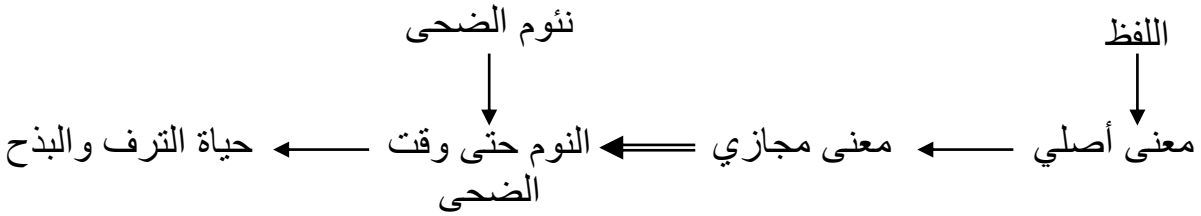

حاصل القول أن ثمة بعدا يخدم الاستراتيجية الخطابية، والمتمثل في اللمحة الدالة، فمن خلال الكناية (اللمحة الدالة) يشعر المخاطب أنه بحاجة إلى الوصول إلى المعنى الحقيقي، المستور وراء المعنى المجازي، وعند هذا الحد يمكن القول بأن هذه المحاولة في حد ذاتها هي التي تعطي القيمة الإبلاغية التأثيرية للكناية[66].

وبالإضافة إلى هذا المنحى ذي البعد الاستراتيجي التداولي الذي يكتنف استعمال البليغ (الذي ينشد تحقيق أهدافه) للكناية، يظهر بعد تداولي آخر تتضمنه الكناية بوصفها "تسمو بالتعبير عن القول الفاحش والمبتذل"[67]، فعملية التعبير المثالية هي العملية التي تضع نصب أعينها شيئين أساسيين: احترام المتلقين واحترام الكلام في حد ذاته؛ كونه يمثل مرآة عاكسة لشخص البليغ المتكلم من كل النواحي (الفكرية والأخلاقية...)، ومن بين الشواهد التي يعتمدها البلاغيون العرب في إثبات هذه النظرة وأحقيتها، تلك الآية القرآنية التي تقول: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾[68] فكلمة "جلودهم" في هذه الآية تأتي كناية عن "فروجهم" "فالقرآن الكريم أعطى "الفروج" معنى مجازيا هو الجلود، لا

لشيء إلا لأنه أراد أن يسمو باللفظ المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره"[69]، وفي هذا دلالة واضحة على عناية الخطاب القرآني بالمقامات والمتلقين، وما يشكل كيانهم من عادات وتقاليد وحركات لا يجوز التغاضي عنها، وليس ذلك بغريب عن الله -سبحانه وتعالى-.

لعل هذا المحتوى الفكري الأخلاقي الذي تمثلته الكناية خليق بأن يؤسس رؤية تماثلية قائمة بين الكناية ومبدأ تداولي أخلاقي بالدرجة الأولى، والمتجسد في مبدأ التأدب Principe de politesse، وهو مبدأ أوردته "روبين لاكوف" Robin Lakoff في مقالتها الشهيرة "منطق التأدب"، ويمكن اختزال هذا المبدأ في الصيغة التالية: لتكن مؤدبا[70]، فنجاح العملية التواصلية وتحقيق غايتها مرهون بمدى التزام الطرفين (المتكلم والمخاطب) في تعاونهما بمقاييس أخلاقية تهذيبية[71].

ج-الاستعارة:

تعد الاستعارة من بين الآليات الأسلوبية الاستراتيجية، التي نالت جهدا لا يستهان به من طرف البلاغيين العرب في مستويين اثنين: المستوى الأول متعلق بالجانب التوظيفي، بحكم أن السواد الأكبر من البلغاء العرب من خطباء وشعراء... لم يفتهم توظيف هذه الآلية، هذا من جهة، أما المستوى الثاني فهو مرتبط بالبلاغيين النقاد والمنظرين كقدامة بن جعفر وعبد القاهر الجرجاني[72] والسكاكي... الذين انكبوا على دراستها (الاستعارة) بالفحص والتحليل والتعمق والتقسيم[73]... إلخ. فما هو السر الذي انطوت عليه الاستعارة في بعدها الاستعمالي الاستراتيجي؟

يعرف أبو هلال العسكري الاستعارة بأنها "نقل العبارة من موضوع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض"[74]، أي حصول هذا الانتقال (من الاستعمال الوضعي الأصلي للغة إلى غيره) يتعلق تعلقا شديدا واضحا بالمقاصد والأغراض التي يتوخاها المتكلم البليغ، ومن أمثلة الاستعارة قول دريد بن الصمة[75]:

كَمِيشُ الإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ صَبُورٌ عَلَى العَزَّاءِ طَلَّاعُ أَنْجُدِ

إن في استعمال الاستعارة في الكلام ومجاوزة الوضع اللغوي الذي اختصت به جماعة لسانية معنية، فوائد فنية جمالية ترتقي بالأسلوب باعتبار، كما قال الجرجاني أنها "تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر [...] فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون"[76].

كما أن للاستعارة فوائد تغذي الاستراتيجية الخطابية بشكل عام، فهي أداة سحرية يتمكن بواسطتها البليغ خدمة أغراضه ومقصده الذي يتكلم من أجله، "وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بقليل من اللفظ"[77]، وبهذا تبين نقطة القوة المتضمنة في الاستعارة، بحكم أنها تخدم المتكلم بالدرجة الأولى خدمة تحقق أهدافه الاستراتيجية المسطرة مسبقا، وتثبتها بفضل الطاقات المكنونة فيها، هذا ما يؤدي بنا رأسا إلى القول بأن التعبير الاستعاري جدير بأن يكون فعالا على المتلقين ونفسياتهم، مقارنة مع التعبير الذي يعتمد على اللغة العادية (الحقيقية الوضعية)، ولهذا قال أبو هلال العسكري: "وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة"[78].

بالإضافة إلى هذا الطرح الذي تبين من خلاله من تلعبه الاستعارة في العملية الخطابية من دور مزدوج قوامه التوجه بالخطاب وفق مسارين: المسار الفني الجمالي والمسار، المغذي لاستراتيجية الخطاب البليغ، نجد للتعبير الاستعاري فعالية حضورية في نظريات تداولية، كنظرية الاستلزام الحواري Implicature Conversationnel، ويظهر

ذلك جليا في عملية الخرق Violation التي تحدث على مستوى المسلمات، فما من شك أن الطابع الغامض والملتبس الذي يميز الاستعمال الاستعاري عن الاستعمال الحقيقي، يؤدي إلى خرق قاعدة النوع، وقاعدة الكم وقاعدة الطريقة، وقاعدة المناسبة، وينجز عن هذا الخرق استلزام Implication[79]، وينبني هذا الأخير انطلاقا من علم المتلقي أن الخرق الذي اعترى المسلمات ناتج من إرادة المتكلم البليغ الذي يريد مقصدا آخر.

2-3 - المحسنات البديعية:

تعد المحسنات البديعية[80] من الميكانزمات (الآليات) التي ارتكز عليها الخطاب البلاغي العربي واستند إليها استنادا كبيرا، وما من شك أن الغرض الذي كان يصبو إليه البليغ العربي من خلال توظيفه لهذه الآليات يتمثل -الدرجة الأولى- في إعطاء بعد تحسني جمالي لكلامه.

ومن هذا المنطلق، يمكن أن يتبلور تصور ذو أرضية خصبة تمكن الباحث من استنطاق الخطاب البلاغي العربي، وسبر أغواره بالكشف عن البعد الاستراتيجي التداولي الكامن وراء استعمال هذه الصور البيانية، ويمكن القول بأن الإشكاليات المركزية الجوهرية التي يمكن من خلالها رفع الستار وكشف الغطاء عن الحمولة الاستراتيجية التي تتضمنها هذه الآليات البديعية تتمثل فيما يلي: إذا كان التحسين الفني الجمالي هو الغرض المنشود الذي يسعى إليه البليغ العربي من خلال توظيفه للمحسنات البديعية، فهل يمكن الحكم أن هذا البعد الجمالي الذي ينبثق من الخطاب موجه للبليغ في حد ذاته، أو أن هذا الخطاب موجه إلى متلق؟ ثم: إذا كان هذا الخطاب المتضمن للأبعاد الجمالية التحسينية متوجه إلى متلق معين فما هو السر في ذلك؟

لعل أول شيء يمكن البدء به في هذا الصدد هو الإقرار بأن الشائع في الدراسات البلاغية العربية القديمة هو كون الدور الذي تلعبه المحسنات البيانية والبديعية بشكل عام يتجسد في إنشاء لغة زخرفية محسنة للكلام[81]، ومن ثم تهميش وغض الطرف عن المتلقين، وما يؤطرهم من مستويات ووضعيات ومقامات اجتماعية وسياسية وفكرية مختلفة.

ولربما كانت الحقيقة الساطعة التي لا تشوبها شائبة والمتمثلة في كون كل عمل خطابي (شعري، نثري) موجه إلى متلقين، كفيلة بتفنيد هذا الحكم؛ إذ لا ضمير في القول: أن الهدف الذي يتوارى خلف استعمال المحسنات البديعية لا يمكن في الزخرف اللفظي في حد ذاته، وإنما في التأثير على المتلقي[82]، باعتبار أن كل ما هو جميل خليق بأن يستميل النفوس ويستهويها، ومن ثم يؤثر عليها.

ولكن ثمة قضية أخرى نجدها تطرح نفسها وبقوة في هذا المضمار، وهي قضية ارتباط هذه الآليات التحسينية بمسألة اختيار الاستراتيجية المناسبة المرتبطة بدورها ارتباطا شديدا بالمتلقين؛ إذ أن استعمال التعبير البديعي لا ينفك، بل ولا ينفصل عن معرفة حالات المتلقين، أو بافتراض ذلك الحال، وعند هذا الحد يمكن الجزم أن الافتراض المسبق Présupposition مفهوم يفرض نفسه في النظام البلاغي العربي[83]، وهذا ما يمكن أن نفهمه من خلال كلام القزويني وهو في مقام تعريف علم البديع، حيث يقول: "هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"[84]، فكلمة "بعد" المستخدمة في هذا التعريف توحي بأن رعاية مقتضى الحال المشدودة بالمتلقين ومستواهم ووضعياتهم ومكان وزمان التلقي، ذات أولوية يجب عدم التغاضي عنها قبل القيام بعملية تحسين الكلام، بمعنى أنه لا يجوز فصل الاستراتيجية البديعية عن المتلقين، بحكم أن بعض المحسنات البديعية التي يعتمدها البليغ – مثلا- عصية على فهم بعض المتلقين ذوي القدرات اللغوية البسيطة.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الاستراتيجيات المعتمدة على الصور البيانية والمحسنات البديعية تتجه بمقوماتها نحو هدف تأثيري نواته الجوهرية تحقيق الأغراض والمقاصد التي ينبني من أجلها الكلام، وهو ما نجده مطروحا في ثنايا

الدرس التداولي، وبالضبط في الشرط الأساسي Essential الذي وضعه "سورل"، عده من بين الشروط الأساسية التي تحقق نجاح الفعل الكلامي بوصفه "يتحقق حين يحاول المتكلم التأثير في السامع"(85).

3-3- الإيحاء:

يعد الإيحاء مصدرا رئيسا من مصادر المقومات التي اعتمدها وعدها البلاغيون العرب ضمن الدعامات الكفيلة بجعل الخطاب –بشكل عام- ينحو منحى استراتيجيا معينا يخدم الأغراض والمقاصد التي ينبني الكلام من أجلها.

وقبل الخوض في غمار البحث عن التعبيرات والأساليب البلاغية العربية ذات البعد الإيحائي، يلفي الباحث ضرورة تقتضي منه التفريق بين الدلالة الإيحائية والدلالة الإدراكية المباشرة، ذلك أن الدلالة الأخيرة (الإدراكية) لها ما يميزها عن الأولى، ويمكن أن نحدد مميزاتها في[86]:

-فهمها المشترك من قبل أفراد البيئة اللغوية الواحدة.

-إدراكها وفهمها يتحقق عن طريق العقل.

-وظيفتها تحدد في الإبلاغ.

أما بالنسبة للدلالة الإيحائية فهي تعرف بأنها "المعنى العاطفي الزائد عن المعنى الإدراكي"[87]، ويمكن أن نحدد خصائصها في[88]:

-أن فهمها يختلف باختلاف الأفراد.

-يمكن عدها بمثابة استجابة نفسية للكلمات.

-وظيفتها هي التأثير على المتلقي.

ومما لاشك فيه أن الطاقة الإيجابية تنبع وتتشكل ضمن حيز استثماري لبعض الأساليب والإجراءات التي يتوخاها البليغ وهو في صدد المباشرة في بناء خطابه " وكل ذلك من أجل تحقيق رغبة معينة، وفي هذا الإطار يمكن أن نسلط الضوء –بإيجاز شديد- على بعض المحطات الإجرائية الفنية التي اعتمدت على الإيحاء:

من أكثر الأساليب البلاغية ذات الطابع الإيحائي نجد التنغيم الصوتي؛ إذ يلقي هذا الأخير بظلال تأثيرية على المتلقي[89]، ويظهر ذلك جليا في بعض الكلمات المحدودة لعلي بن أبي طالب حيث يقول: "فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف قلتم: هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبارة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فرارا من الحر والقر، فأنتم والله من السيف أفر"[90]، في هذه الخطبة التي يحث فيها على الجهاد تظهر قيم إيحائية قل نظيرها؛ فرنين (الراء) يتكرر بصورة مستمرة في الكلمات الآتية (أمرتكم، حمارة، الحر، السير، صبارة، القر، البرد، فرارا)، كما يضاف إلى ذلك صفير ينبع من الحرفين الآخرين: الصاد والسين (السير الصيف، يسبح صبارة، ينسلخ، السيف)، وهذا ما سيعطي للخطاب دلالات إيحائية تخلق جوا من (الوشيش)، وتوحي أن الإمام عليا لم يجهر بعباراته، وإنما تلفظها عن طريق الهمس[91].

وعلى هذا الأساس تغدو الآلية الاستراتيجية، والمتمثلة في التنغيم (التناغم الصوتي) بمثابة صبغة إيحائية، يستند إليها البليغ من أجل تحقيق الإيصال الفعال السليم والواضح لما يختلج نفسه من مقاصد وأغراض، وهذا ما ينسجم من حيث التماثل مع تنظيرات سورل Searl المتعلقة بالقوة الإنجازية Illocutionary Force؛ إذ جعل هذا الأخير (سورل) للقوة الإنجازية دليلا يسمى "دليل القوة الإنجازية" Illocutionary Force indicator هو الذي (يوحي) ويبين نوع الفعل الإنجازي الذي يصدر من المتلفظ، ومن أمثلته (في اللغة الإنجليزية): نظام الجملة Word -Order والنبر Stress، والتنغيم Intonation[92].

كما يعد التخييل في الأساليب الإيحائية التي ارتكزت عليها البلاغة العربية[93]، قصد منح الخطاب أفقا استراتيجيا يخدم المتلفظ سواء تعلق الأمر بالجانب الشعري أو النثري، ولعل أفضل شاهد على هذه الرؤية: الآية الكريمة التي تقول: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي، فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا، لا تخاف دركا لا تخشى فيتبعهم فرعون بجنوده (فغشيهم من أليم ما غشيهم) وأضل فرعون قومه وما هدى﴾[94]، فالبعد الإيحائي في هذه الآية كامن في عبارة (فغشيهم من اليم ما غشيهم)، فالآية الكريمة لم توضح ولم تفصل (عن قصد) الأحداث التي حصلت لفرعون وجنوده عندما جازوا البحر، وهو ما يستدعي من المخاطب أن يستنجد بالتخييل لمعرفة تلك التفاصيل ورفع الغموض، وبذا فإن هذه الكمية من الغموض كفيلة بإعطاء الطاقة الإبلاغية ذات البعد الاستراتيجي التأثيري لهذه الآية[95].

وعند هذا الحد، تنبثق رؤية تقابلية حاصلة بين الدرس البلاغي العربي والدرس التداولي المعاصر، وهذه الرؤية قائمة على أساس التشابه من جهة إدراك الدرسين وظيفة استعمال واستثمار البعد التخييلي في الخطابات، حيث أعطت نظرية الملاءمة Théorie de pertinence للتخييل –بوصفه غير حرفي- فائدة معرفية مهمة تكمن في بناء تمثل للكون وتجويده[96].

3-4- المقصدية:

يتمثل دور المقاصد بصفة عامة في بلورة المعنى كما هو عند المرسل؛ إذ يتوجب منه انتقاء طريقة أو أسلوب معين (استراتيجية) للتعبير عن قصده بدون غض الطرف عن مراعاة العناصر السياقية الأخرى؛ إذ يكمن دور هذه الأخيرة في استجلاء القصد الحقيقي المراد، فإذا "ما أخذنا في اعتبارنا هوية المتكلم ومقصده، والوضعية التي هو عليها، نرى بأن المعنى يتعدل ويتدفق ويغتني، من هنا نتحاور المعنى الحرفي إلى معنى أكثر اكتمالية، تسمح بإمكانية تحديد الحقيقة"[97]، وعلى هذا الأساس يصبح الإلمام بهذه العناصر السياقية أمرا ضروريا؛ إذ إنه يخدم العملية الكشفية للمعنى المراد الحقيقي (القصد)، وتجاوز المعنى الظاهر السطحي.

ومما لا شك فيه أن قضية القصدية شكلت بؤرة اهتمام كبير لا يستهان به من قبل نفر كبير من البلاغيين العرب، بحيث نظروا إليها بوصفها دعامة أساسية ينبغي توافرها في الدلالة[98]، فبالإضافة إلى التواضع الذي يقتضي معرفة المتكلم بمستويات اللغة كالمستوى التركيبي والدلالي نلفي استعمال هذه الملكات في كلام يحمل –لا محالة- قصدا معينا؛ إذ إنه "بعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلم به، واستعماله فيما قررته المواضعة، ولا يلزم على هذا أن تكون المواضعة لا تأثير لها؛ لأن فائدة المواضعة تميز الصيغة التي متى أردنا مثلا أن نأمر قصدناها، وفائدة القصد أن تتعلق تلك العبارة بالمأمور، وتؤثر في كونه أمرا له، فالمواضعة تجري مجرى شحذ السكين، وتقويم الآلات، والقصد يجري مجرى استعمال الآلات"[99]، بمعنى أن القصد ركيزة أساسية ينبغي التعويل عليها في المواضعة نفسها، ذلك أن هذه الأخيرة "وإن كانت ضرورية لجعل الكلام مفيدا فهي غير كافية، إذ لا بد من اعتبار المتكلم، أي قصده"[100].

كما يظهر في هذا النطاق –المتعلق بالقصدية- الإسهامات التنظيرية **للجرجاني**، وهو في إطار حديثه عن أضرب الكلام، حيث يقسمه إلى ضربين: "ضرب أن تتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده..."[101] بمعنى أنه ضرب تحيل فيه الكلمات على معانيها العرفية، ولذلك فإنها تنحصر في الكلام الذي يراد منه الإخبار، أما الضرب الثاني: فهو مختلف عن الضرب الأول المعتمد على الإطار التواصلي للكلام العادي، وإنما يقوم على إطار تواصلي مختلف؛ حيث إنه "ضرب آخر: أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل لها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"[102]، أي أن هذا النوع من التواصل يحدث فيه الانتقال انطلاقا من اللفظ الذي يشير إلى معناه العرفي، ثم يشير هذا المعنى إلى معنى آخر لا يندرج ضمن حدود اللفظ، وهذا هو سر تمثله في الكناية والاستعارة والتمثيل، وبذا تنكشف مشكلة أساسية لا تنفك عن عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب، وتتجسد تلك المشكلة في ضمان وتأمين المعنى المراد الذي تحمله عبارات

وكلمات المتكلم[103]. إنها بعبارة أخرى إشكالية القصدية L'intentionnalité، التي أولاها الدرس التداولي المعاصر عناية فائقة[104]؛ إذ أخذت منه مأخذا لا يستهان به، ويظهر ذلك جليا في أهم نظرية تداولية، وهي نظرية الأفعال الكلامية.

فلقد أكدت الدراسات والمقاربات التداولية أن الفعل الكلامي ذو بعد مقصدي[105] باعتبار أن المتكلم لا يتلفظ إلا من أجل تحقيق غايات وأهداف محددة، وقد كانت القصدية في نظرية الأفعال الكلامية من إضافات سيرل، وهو في منحاه هذا ينهل من أستاذ آخر له هو بول هربرت جرايس (P.H. Grice)، ففي سلسلة من المقالات في العقدين الخامس والسادس، اقترح جرايس أن يختزل مفهوم الدلالة (La signification) في مفهوم القدصية (Intension)[106] وبهذا أتم الانتقال بالدلالة La Sémantique إلى مجال علم النفس (Psychologie).

انطلاقا من هذه المحطات الوجيزة، تتجلى آفاق التماثل والتماهي بين الدرس البلاغي العربي والدرس التداولي، خاصة في اعتمادهما المشترك على البعد المقصدي في عملية التلفظ، وعده آلية تخدم الاستراتيجية الخطابية التي عقد من أجلها الكلام، وبالتالي منح الخطاب أفقا تحقيقيا للأهداف المسطرة والمرجوة من خلال عملية التلفظ بالكلمات والعبارات.

خاتمة:

لقد خلص البحث إلى مجموعة من النتائج المعرفية، ويمكن إجمالها في النقاط التالية:

1- هناك تقاطع معرفي وتماثل منهجي واضح لا غبار عليه بين جوهر الآليات البلاغية ومنحاها، وبين التداولية وآلياتها ومقولاتها الكبرى؛ فكلاهما يقومان على أسس ومبادئ موحدة؛ كالإبلاغ، والتواصل، والسياق، والقصدية، والتفاعل والإقناع.

2- يمكن عد "الاستراتيجية" في أسمى معالمها تدابير وخططا مسبقة وطرقا محددة لبلوغ غايات وأهداف معينة، وهو مفهوم مرتبط بالخطاب الهادف في مستواه التواصلي /التداولي.

3- كما يمكن وصف الخطاب بأنّه مفهوم عائم فضفاض اختلفت تعاريفه، ومفاهيمه، ولكننا بقليل من التدبر والتعقل يمكن تبني المفهوم الذي ووكله رولان بارث في كتابه نظرية النص Théorie Texte للخطاب حين عبر عنه بأنه "إنجاز فردي يتشكل من مجموعة من الوحدات الخطابية، تربطها ببعضها علاقات تحقق للخطاب انسجامه" وهو تعريف نرى أنّه جامع لأهم الخصوصيات والشروط التي تشكل حدوده وتشدّ كيانه.

4- وجهت البلاغة العربية عنايتها ومدارستها نحو أنواع ثلاثة للخطاب، وهي القرآن الكريم، والقصيدة (الشعر)، والخطبة، وكل هذا من أجل الكشف عن المظاهر البلاغية ذات البعد الاستراتيجي الموظفة في الخطاب، من أجل تحقيق الأهداف القبلية المسطرة؛ (كالإقناع، والإفهام، وتحقيق سمة الجمال...).

5- من بين أهم الآليات البلاغية الاستراتيجية التي اختلجت الخطاب البلاغي العربي وأهم تمفصلاته نلفي:

5-1- الصور البيانية؛ كالتشبيه الذي يؤدي -حسب الأفق الفكري لأهم العلماء البلاغيين العرب المبرزين- إلى وضوح المقاصد وتأكيدها، والكناية التي تحمل في ثناياها مبادئ تداولية (أخلاقية / تأدبية) بالدرجة الأولى، وآلية الاستعارة التي عدها البلاغيون العرب آداة سحرية تفضي إلى خدمة المقاصد والأغراض التي عقد الخطاب من أجلها، كما يربط هذا المفهوم علائق وتماثلات حقيقية بينه وبين أهم النظريات التداولية المعاصرة كالاستلزام الحواري implicature conversationnel.

5-2- المحسنات البديعية، وتقوم هذه الآليات المعتمدة في الخطاب البلاغي العربي، على التحسين الفني الجمالي للألفاظ والعبارات، وهو ما يؤدي رأسا إلى التأثير على النفوس والإقناع ...وهو ما يقع في دائرة الحجاج l'argumentation

ومباحثه التي يتغنى بها الفكر التداولي المعاصر وأهم منظريه، بالإضافة إلى اكتناف هذه المحسنات ومضات تداولية أخرى كمفهوم الافتراض السابق présupposition.

5-3- الإيحاء؛ كاستعمال التنغيم الصوتي، وأثره الذي يعقد فصول تماه وتماثل مع مفهوم القوة الإنجازية illocutionary force ، وكذا استعمال التخييل واستثماره في خطاب بلاغي استراتيجي ذي مقاصد تأثيرية، وهو ما يضعنا مباشرة أمام أهم النظريات التداولية المعاصرة؛ كنظرية الملاءمة théorie de la pertinence.

5-4- المقصدية، والتي تشكل بؤرة اهتمام البلاغيين العرب بوصفها مقوما استرتيجيا ينبغي توفره في الدلالة، وهو ما يتقفاه الدرس التداولي المعاصر، وهو في صلب تنظيراته المتعلقة بإشكالية القصدية l'intentionalité، وهو ما ظهر جليا في تصورات كل من بول هيربرت جرايس (P.H. Grice) و جون سورل (J. Searl).

الهوامش:

[1] كما يذكر فرانسوز أرمينكو أن هناك فريقا آخر يعد التداولية في ذلك هي ذلك العلم الذي يبحث الاستعمال اللساني ضمن السياق، ويمثل هذا الاتجاه ماكس بليك Max Black.

[2] المرجع نفسه، ص11.

[3] ينظر: محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا، ص117.

[4] ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، (د.ت) مادة بلغ.

[5] ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص25.

[6] يقول الدكتور تمام حسان – مدعما هذه الرؤية التي تعد المقام من الركائز الأساسية التي يتطلب الإلمام بها في أي تحليل أو بحث عن المعنى: "... ومعنى هذا بالتالي أننا حين نفرغ من تحليل الوظائف على مستوى الصوتيات والصرف والنحو، ومن تحليل العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها على مستوى المعجم، لا نستطيع أن ندعي أننا وصلنا إلى فهم المعنى الدلالي؛ لأن الوصول إلى هذا المعنى يتطلب فوق كل ما تقدم ملاحظة العنصر الاجتماعي الذي هو المقام" تمام حسان، اللغة العربية، معناها ومبناها، عالم الكتب، الطبعة الرابعة، القاهرة، 2003، ص342.

[7] إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار الميسرة، الطبعة الأولى، 2007، ص215.

[8] الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص44.

[9] ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[10] المرجع نفسه، ص 43.

[11] راضة خفيف بكري، التداولية وتحليل الخطاب، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد 399، تموز 2004، ص56.

[12] حسن البحيري، علم لغة النص، ص7.

[13] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[14] المرجع نفسه، ص8.

[15] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[16] ينظر: هنرش بليت، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 1999، ص24.

[17] لقد اختارت البلاغة الكلاسيكية مقام الخطاب القضائي نقطة انطلاق لها، حيث كان المحامي يقف في الموقف المخصص له ليتهم أو ليرد على الاتهام، وهو يسعى إلى كسب رضا القاضي، كما لا يمكن التغاضي -بالإضافة إلى هذا المقام- عن مقامين تطبيقيين؛ فصاحة إلقائية، وفصاحة لغوية "المقام التشاوري والمقام الاحتمالي". ينظر: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[18] ينظر: المرجع نفسه، ص29.

[19] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[20] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص124.

[21] المرجع نفسه، ص124.

[22] حسن البحيري. علم لغة النص، ص09.

([23]) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي "الزمن، السّرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989، ص20.

([24]) رابح بحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، ص 161، 1999، جامعة عنابة، الجزائر.

([25]) Petit Larousse, Librairie La rousse ; Paris 6 ; 1980 ; P. 297.

([26]) Patrick Charaudeau, Dominique Maingueuneau ; Dictionnaire d'Analyse de discours ; édition du seuil ; Paris VI[e], 2002 ; P. 185.

([27]) EMILE Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T_1, ed. Cérés, 1995, Tunis, P 241.

([28]) Emille Benveniste, problème de linguistique générale, T_1 P. 59.

([29]) Emille Benveniste. Ibid. P. 241.

([30]) ينظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص19.

([31]) أحمد يوسف، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، دار النشر، ط 2000-2001، ص 68.

([32]) ينظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص22.

([33]) Patrick Charaudeau, Dominique Maingueuneau, Ibid, P. 185, 186.

([34]) Patrick Charaudeau. Dominique Maingueneau. P. 188/189.

([35]) Voire. Dominique Maingueneau. L'analyse du discours, Ed. Hachette, Paris, 1997 P. 10

([36]) رولان بارث، نظرية النص، تر. محمد خير البقاعي، العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي؛ بيروت، لبنان، ع: 5، 1998، ص 93.

([37]) رولان بارث، الدرجة الصفر للكتابة، تر. محمد برادة، المغرب، 1998، ص 95.

([38]) Voit, Gérard Genette, Figures, éd. Cérés, Tunis, P. 180-277.

([39]) طه عبد الرحمن، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، الطبعة (1)، 1998، ص 225.

([40]) طه عبد الرحمن، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 225.

([41]) المرجع نفسه، ص 225.

[42] ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص53.

[43] المرجع نفسه، ص54.

[44] المرجع السابق، ص56.

[45] ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1997، ص154.

[46] إذا رجعنا إلى الخطابة في العصر اليوناني القديم وجدنا أن الإقناع يشكل صميمها وجوهرها، ويظهر ذلك جليا من خلال آراء وتنظيرات أرسطو Aristot في مجال الخطابة؛ إذ تشكل هذه الأخيرة (حسب أرسطو) أداة أدبية تقيم دعائمها على أساس "إقناع المخاطب (أو المخاطبين) من خلال هز مشاعره وإثارته وجره إلى اتخاذ موقف متعاطف مع قضية الخطيب" ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية: منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، 1991، ص111.

[47] ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1991، ص95.

[48] البنى الكبرى Macro Structure: تتمثل حسب فان ديك المضمون الإجمالي للنص الذي يرتبط بالقضايا المعبر عنها بجمل النص بواسطة ما يسمى القواعد الكبرى Macro Règles. ينظر: علي آيات أوشان، السياق والنص الشعري، ص79.

[49] البنى الفوقية Super Structure: وهي نوع من البنى الإجمالية للنص، تتعلق بالترابط الداخلي للنص، وأشهر نموذجين من البنى الفوقية – حسب فان ديك- هما: الخطابة السردية والخطابة الحجاجية. ينظر: المرجع نفسه، ص81/80.

[50] ينظر: المرجع نفسه، ص82/81.

[51] الاستراتيجية كلمة متواترة في الدراسات البلاغية اليوم، ويقصد بها جملة الوسائل التي يضمنها المتكلم كلامه أو فعله اللغوي، حتى تضمن له بلوغ الهدف المقصود، ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات كلية الآداب، منوبة، ص190.

[52] يعرف الباحث سمير أبو حمدان الإبلاغية بأنها "تيار نقدي حديث، يقف على الحدود المشتركة بين علم النفس وعلى اللغة الحديث، وهي مصطلح حديث التداول، يشمل جميع الشحنات النفسية ذات القوة التأثيرية على المتلقي" سمير أبو حمدان، الإبلاغية في العربية، ص8.

[53] المرجع نفسه، ص122.

[54] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، ص163.

[55] من أجل معرفة الأهمية التي أولاها البلاغيون لمسألة التشبيه، نحيل القارئ إلى كتاب "الاتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي، وكتاب طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، و"أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، وغيرها من الكتب.

[56] القزويني، الإيضاح، ص164.

[57] على أساس هذه النظرة التي تؤكد على عامل الاختلاف بين المشبه والمشبه به، ظهر مفهوم الغيرية، ويقصد بها (حسب رأي البلاغيين العرب): أن يكون المشبه في الصورة الشعرية غير المشبه به، على الرغم مما يشترك به الاثنان من صفات وأوجه. ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، ص153/152.

[58] أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيرون، لبنان، 2006، ص213.

[59] القزويني، الإيضاح، ص164.

[60] أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص216.

[61] ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، ص 156.

[62] أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص107.

[63] سورة النساء، الآية 43.

[64] ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، ص157.

[65] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص157.

[66] ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، ص159.

[67] المرجع نفسه، ص159.

[68] سورة فصلت، الآية 21.

[69] أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج2، ص40.

[70] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص240.

[71] ويتفرع مبدأ التأدب إلى القواعد التهذيبية التالية:

أ-قاعدة التعفف: ولكي تتحقق يجب أن لا يفرض المتكلم نفسه على المخاطب.

ب-قاعدة التشكك: ومقتضاها هو أن تجعل المخاطب يختار بنفسه.

ج-قاعدة التودد: وهي تقوم على إظهار الود للمخاطب. ينظر: المرجع نفسه، ص 240-241.

[72] يمكن القول بأن أبرز البلاغيين العرب الذين تعاطوا مع الاستعارة: إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني، حيث أخضعها للفحص والتحليل، وعلى الرغم من أن نظرة عبد القاهر إلى هذه المسألة لم تكن مختلفة كثيرا عن نظرة الأوائل، غير أن تحليله لها تميز بقدر كبير من التبصر والعمق وبعد النظر. ينظر: سمير أبو حمدان. الإبلاغية في البلاغة العربية، ص160.

[73] لقد جعل البلاغيون العرب الاستعارة على أنواع، منها:

أ-الاستعارة التصريحية: وهي التي يصرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه.

ب-وهناك الاستعارة المكنية: وهي التي يذكر فيها المشبه، ويحذف منها المشبه به، أي ذكر بعض صفاته أو لوازمه.

ج-كما هناك الاستعارة التمثيلية: حيث نجد تركيب اللفظ في غير موضعه.

-وبالإضافة إلى هذه الأنواع من الاستعارة، هناك أخرى: كالأصلية والمرشحة والتبعية والمطلقة واللفظية وغير اللفظية. ينظر: المرجع نفسه، ص161/160.

[74] أبو هلال العسكري، الصناعين الكتابة والشعر، ص240.

[75] ديوان الحماسة، شرح التبريزي، طبعة القاهرة، سنة 1457هـ، ج2، ص308.

[76] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2001، بيروت، لبنان، ص40.

[77] أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص240.

[78] المصدر السابق، ص241.

[79] ينظر: أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، 2005، ص28.

[80] تنقسم المحسنات البديعية إلى قسمين: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ، أما المعنوي فمنه المطابقة، والمقابلة، والمشاكلة، ومراعاة النظير...إلخ، ومن القسم الثاني: التجنيس، السجع...إلخ. ينظر في هذا الصدد: السكاكي، مفتاح العلوم، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، مصر 1990، ص233 وما بعدها.

[81] ينظر: لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستيطيقا، دار نوبال للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997، ص91.

[82] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ليبيا، 2004، ص48.

[83] ينظر: المرجع نفسه، ص47.

[84] الخطيب القزويني، الإيضاح في علم المعاني، البيان والبديع، ص255.

[85] محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص48.

[86] ينظر: محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2004، ص79.

[87] المرجع نفسه، ص79.

[88] ينظر: محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية "دراسة حول المعنى وظلال المعنى، دار الكتب الوطنية، الجماهيرية العظمى، ص154.

[89] ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، ص46.

[90] الإمام علي ابن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، دار التعارف، بيروت، ج1، ص69-70.

[91] ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، ص 46.

[92] ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص47.

[93] ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، ص131.

[94] سورة طه، الآيات 79/78/77.

[95] ينظر: سمير أبو حمدان، الإبلاغية في اللغة العربية، ص131.

[96] ينظر: آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دعفوس، محمد شيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ص198.

[97] ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص19.

[98] ينظر: قادة عقاق، المنجز في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، ص22.

[99] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص44/43.

[100] محمد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية عقلية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 1993، ص69.

[101] الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص178.

[102] المصدر نفسه، ص178.

[103] ينظر: محمد عبد الرزاق عبد الغفار، عبد القاهر الجرجاني في النقد العربي الحديث، دراسة في إشكالية التأويل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2002، ص52.

[104] لقد تمركزت البحوث التداولية المتعلقة بالقصدية بشده في أعمال جرايس P. Grice، وبالضبط في نظرية التعاون Principe de coopération، وما انبنى عليها من دراسات أخرى، ولشيء من التفصيل حول هذا المجال راجع: صلاح إسماعيل، نظرية المعنى فلسفة بول جرايس، الدار المصرية السعودية، بيروت، لبنان، 2005.

[105] ينظر: عبد السلام إسماعيلي علوي، التلفظ والإنجاز: eljabriabed.comwww.fikrwanakd consulté le 08/08/2018

[106] Diego Marconi P. Grice, p103.

مصادرومراجع البحث:

- القرآن الكريم

1 - المصادر:

1. ابن سنان الخفاجي الحلبي، 2003، سر الفصاحة، د ط ، القاهرة، دار قباء.
2. ابن منظور ، (د.ت) ، لسان العرب، بيروت، د ط، بيروت، دار صادر.
3. أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، 1987، الكامل في الأدب، د ط، بيروت، دار الكتب العلمية .
4. أبي الفرج قدامة بن جعفر، د ت ، نقد الشعر تحقيق عبد المنعم خفاجي، د ط ، لبنان، دار الكتب العلمية.
5. أبي هلال العسكري، 2006، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان ، المكتبة العصرية.
6. أبو يعقوب السكاكي، 1990، مفتاح العلوم، الطبعة الثانية ، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركائه.
7. الإمام عبد القاهر الجرجاني، 2005، دلائل الإعجاز شرح وتعليق محمد التنجي، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي.
8. الإمام علي بن أبي طالب (د.ت)، نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، د ط، بيروت، دار التعارف.
9. الخطيب القزويني، 2003، الإيضاح في علم المعاني، البيان والبديع، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، بيروت، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
10. ديوان الحماسة، سنة 1457هـ، شرح التبريزي، طبعة القاهرة، ج2.
11. عبد القاهر الجرجاني، 2001، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، لبنان، دار الكتب العلمية.
12. قدامة بن جعفر، دت، نقد الشعر، د ط، لبنان، دار الكتب العلمية.

2- المراجع باللغة العربية:

1. إبراهيم خليل، 2007، في اللسانيات ونحو النص، الطبعة الأولى، لبنان، دار المسيرة.
2. أحمد يوسف، 2001، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، ط1، لبنان، دار المسيرة.
3. أمبرتو إيكو، 2005، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، الطبعة الأولى، ، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.
4. آن روبول، جاك موشلار، 2003، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دعفوس، محمد شيباني، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار للطليعة للطباعة والنشر.
5. تمام حسان، 2003، اللغة العربية معناها ومبناها، الطبعة الرابعة، القاهرة، عالم الكتب.

6. الجيلالي دلاش، د ت، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر : محمد يحياتن، د ط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

7. حسن البحيري، 1997، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط1، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان.

8. حمادي صمود، د ت، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، د ط ، منوبة، منشورات كلية الآداب.

9. رابح بحوش، 1999، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، د ط ، الجزائر، منشورات جامعة عنابة.

10. رولان بارث، 1998، الدرجة الصفر للكتابة، تر. محمد برادة، د ط، المغرب، المركز الثقافي العربي.

11. سعيد يقطين، 1989، تحليل الخطاب الروائي "الزمن، السّرد، التبئير، ط1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

12. سمير أبو حمدان، 1991، الإبلاغية في البلاغة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، منشورات عويدات.

13. صلاح إسماعيل، 2005، نظرية المعنى فلسفة بول جرايس، د ط، بيروت، لبنان، الدار المصرية السعودية.

14. صلاح فضل، 1996، بلاغة الخطاب وعلم النص، الطبعة الأولى، دار نوبار.

15. طه عبد الرحمن، 1998، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي.

16. عبد الهادي بن ظافر الشهري، 2004، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، ليبيا، دار الكتاب الجديد المتحدة.

17. علي آيات أوشان، د ت، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، د ط، الدار البيضاء، دار الثقافة.

18. قادة عقاق، 2004، السيميائيات العربية قراءة في المنجز التراثي، د ط، بلعباس (الجزائر)، مكتبة الرشاد.

19. لطفي عبد البديع، 1997، التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستيطيقا، الطبعة الأولى، القاهرة، دار نوبال للطباعة.

20. محمد الجابري، 1993، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية عقلية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

21. محمد خطابي، 1991، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، الطبعة الأولى، المغرب، المركز الثقافي العربي.

22. محمد عبد الرزاق عبد الغفار، 2002، عبد القاهر الجرجاني في النقد العربي الحديث، دراسة في إشكالية التأويل، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

23. محمد محمد يونس علي، 1993، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية "دراسة حول المعنى وظلال المعنى، د ط ، ليبيا، دار الكتب الوطنية، الجماهيرية العظمى.

24. محمد محمد يونس علي، 2004، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، الطبعة الأولى ، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة.

25. محمود أحمد نحلة،2002، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د ط، مصر، دار المعرفة الجامعية.

26. ناظم عودة خضر، 1997، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، د ط، لبنان، دار الشروق للنشر والتوزيع.

27. هنرش بليت، 1999، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، د ط، بيروت، لبنان، إفريقيا الشرق.

المجلات:

1. راضة خفيف بكري، تموز 2004، التداولية وتحليل الخطاب، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد 399.
2. رولان بارث، 1998، نظرية النص، تر. محمد خير البقاعي، العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ع: 5.

المراجع الأجنبية:

1. Diego Marconi : (1997). La philosophie du language au xx^{ième} siècle, Traduction Française par : M : Valinsi, Paris, Edition du seuil,
2. Dominique Maingueneau. L'analyse du discours, 1997. , Paris, Ed. Hachette.
3. EMILE Benveniste, 1995, Problèmes de linguistique générale, T_1, Tunis.ed. Cérés
4. Gérards Genette1994., Figures, Tunis, Ed. Cérés,
5. Patrick Charaudeau, Dominique Maingueuneau ; 2002, Dictionnaire d'Analyse de discours ; Paris édition du seuil ;
6. Patrick Charaudeau, Dominique Maingueuneau,
7. Dictionnaire d'analyse de discours, Paris, VI ième. ; édition du seuil
8. Osward Ducrot. Tzvetan Todoron : 1980 Petit Larousse, Paris, Librairie La rousse ;

المو اقع الإلكترونية:

1. عبد السلام إسماعيلي علوي، التلفظ والإنجاز eljabriabed.comwww.fikrwanakd consulté le 08/08/2018